جيش الخلاص

في أوساط الخدم والعمال وأصحاب الحرف وصغار الباعة

كنت أتحدث مع رجل فاضل في بعض أوساطنا الاجتماعية . هو رجل أرستقراطي بنشأته وتربيته ، ولكنه يأخذ من الجانب الخير في الارستقراطية أكثر مما يأخذ من الجانب الآخر ، فهو يأخذ نفسه بوجوب رعاية الطبقات الفقيرة ، وهو يشترك في أعمال البر والإرشاد ، وفيه في هذه النواحي سماحة نفس وطيبة قلب وسخاء يد .

ثم تحدثت عن طبقات العمال وأصحاب الحرف وعن باعة الجرائد والخدم وأشباههم من الطبقات المحرومة من المال والعلم والتهذيب في كثير من الأحيان ، وكنت أميل حسب بعض التجارب الشخصية التي وقعت لي إلى اعتبارهم مجنيا عليهم فيما يصدر عنهم من أعمال مرذولة منتقدة كالغش والكذب والسرقة في التعامل مع المجتمع ، فقد وقعت لي حوادث معينة مع بعض هؤلاء الناس حاولوا فيها غشي وخداعي وسرقتي فلما أظهرت عطفي عليهم وتسامحي معهم عادوا يحاولون إصلاح ما أفسدوا ورد ما خدعوني فيه أو سرقوه .

وكانت وجهة نظري أن كثيرا مما يصدر من هؤلاء المساكين من أعمال منافية للعدالة والكرامة والأمانة إنما هو رد فعل لمعاملة المجتمع لهم وحرمانه مما يتمتع به الآخرون من الضروريات ومن القسوة عليهم في المعاملة والنظر إليهم بعين الازدراء فهم ينتقمون لأنفسهم بهذه الرذائل التي تضيق صدورنا بها ، وتزيد سوء ظننا بهم من أجلها .

وكان الرجل الفاضل يشترك معي في العطف على هذه الطبقات ، ولكن تجاربه الخاصة تختلف عن [illegible] أن كثيرين منهم [illegible] كثيرا ما يخونون الأمانة [illegible] وكثيرا [illegible] التي كانت [illegible] مضمونة أو استلموها .

وقصصت له قصة عن بائعة جوالة حاولت أن تغشني في "أرنب" مريضة فلما تغاضيت عن الحالة وأصررت لها ثمنها ، وربما استرجعت الأرنب المريضة وأعطت أرنبا سليمة [illegible] آخذين عن [illegible] حرجي عن حادث تشبه هذا الحادث وقص على قصصا أخرى وقعت له من بعض هؤلاء الناس .

قص علي بائع "منجد" كان معتادا أن يحضر له في المنزل شيئا منها بين حين وآخر فيتسامح معه في الثمن ويتعطف عليه ويأمر له بالطعام في بعض الأحيان وبالملابس القديمة في أحيان أخرى . . . وفي مرة سلمه جنيهين ليتقاضى الثمن ويرد له الباقي وهو حوالي

ثمانين قرشا ، ثم أدركته سهوة تعاوده فى بعض اللحظات ، فانتهز الرجل هذه الفرصة وذهب بالباقى ولم يعد . . . وبذلك عق العطف الذى يجده ، وخسر "زبونا" طالما كسب منه

وقص على أن خادمة له كانت تطعم مما يطعم منه هو واهل بيته . كان يجعل نصيبها كنصيب أى فرد كاية ونوعا مهما غلا ثمن ما يطعمون ، وذلك حرصا منه على ألا يثير فى نفس هذه الخادمة حقد الحرمان ولا فوارق الطبقات ، ولكنها انتهزت غفلة وسرقت بعض الحلى وذهبت هاربة . وبذلك عقت النعمة والعطف وحرمت مورد الرزق فى بيت مريح.

وقص على أنه طلب مرضعا لطفله فى مرض زوجته ؛ فظلت المرضعات تتوالى ، وكل منهن تأتى قذرة بالية الملابس فيأمر لها بحمام مطهر وبملابس نظيفة و يرتب لها مبلغا مناسبا ، وما هى إلا بضعة أيام حتى تحن إلى بلدها ، ولكنها لا تخبرهم بعزمها على الرحيل ، بل تذهب خفية تاركة الطفل بلا رضاع حتى شكا لأحد أصدقائه فأوصى له بمرضع من خريجات (مدرسة الأحد) التى تلتقط الفتيات الفقيرات فتهذبهن وتثقفهن وتزوجهن ، فقامت بمهمتها خير قيام ، ولا تزال حتى اليوم صاحبة دالة على الطفل وعلى والديه .

وعلى الرغم من هذه الأمثلة التى قصها على هذا السيد ، ومن كثير غيرها مما يصل إلى سمعى أو يقع لى فلا زلت على عقيدتى الأولى فى أن هؤلاء الناس مجنى عليهم وليسوا جناة فيما يقع منهم من سيئات . فقد يكونون جميعا — وهذا غير الواقع — ممن يجزون الإحسان باساءة وممن يتسببون فى حرمان أنفسهم من الرزق المضمون والعمل المريح والعطف الكريم ولكن المجتمع هو فى الحقيقة الجانى عليهم بإهمالهم حتى يصلوا الى هذا المستوى السيء ، وبحرمانهم حتى أصبحوا يستحلون لأنفسهم أن يغشوا و يخدعوا ليحصلوا على ما ليس لهم وعلاجهم الصحيح ان يكون باهمالهم واستخسار الجهد فيهم ، بل بالعناية بأمرهم ، ومحاولة تخليصهم من الهوة التى يترددون فيها .

وفيما قصه حضرة السيد المحترم من قصة المراضع دليل كاف على أثر الإهمال والجهل وأثر العناية والتثقيف ، فلو وجد كل واحد وواحدة من هؤلاء ما تجده فتيات (مدرسة الأحد) من رعاية وتهذيب لتغيرت الأوضاع وزالت أسباب الشكوى أو خفت خفة ملحوظة .

نحن نشكو سوء أخلاق الخدم الذين نستقدمهم من الريف أو من المدينة فننظفهم ونعالج أمراضهم ونكسوهم ونطعمهم ونؤدى لهم الأجور ، ثم يكون الجزاء على ذلك غالبا السرقة والهروب ، أو ترك الدار تنعى من بناها بلا إخطار ولا إنذار إذا لاحت لهم أجرة أعلى فى جهة أخرى ، فإن لم يكن هذا ولا ذاك وظلوا فى خدمتنا ، تراخوا فى العمل وتأخروا فى الطريق وعبثوا مع خدم الجيران واخترعوا الأكاذيب والحيل لتبرير ما يصنعون إلى آخر ما نقاسيه من هؤلاء الخدم الملاعين .

وكل هذا صحيح . ولكن هل سألنا أنفسنا مرة واحدة من الملوم فى أن يكون الخدم هكذا من سوء السلوك ؟

كلنا يعرف البيئة التى تجتاب منها الخدم، وهى بكل تأكيد ليست كلية الآداب فى الجامعة وليست السوربون فى باريس ! فهم منطقيون مع بيئتهم ومع نشأتهم التى لاحيلة لهم فيها، وإذا كنا لم نفكر فى إيجاد بيئات صالحة نرى فيها الأفراد الذين يعدون أنفسهم للخدمة فى المنازل والمكاتب والمتاجر وسواها ، فلا أقل من أن يكون لنا " جيش خلاص " تخصص فرقة منه للاندماج فى أوساط الخدم محاولة تهذيبهم و إرشادهم بطريقة منظمة فعالة ، يحسون معها بعد حين أن من الخير لهم أن يتهذبوا و يستقيموا و يتبعوا مبادئ الأمانة والإخلاص فى العمل الذى منه يعيشون .

ونحن نشكو جهل العامل المصرى وقذارته وفظاظته وعدم أمانته فى عمله ، وميله إلى البطالة والتسكع ، و إدمانه على المكيفات وسوء تدبيره فى غذائه ولباسه وسكنه ، و يحلو لنا أن نوازن بينه و بين العامل الأوربى الذى قد لا يزيد دخله عن دخله ، ومع هذا فهو أنظف منه وأصح بدنا وأكثر نشاطا فى عمله وتنظيما لوقته ، وأحسن استمتاعا بالحياة وسعادة فيها ورقيا فى مدارجها .

وقد يكون هذا صحيحا كله ! ولكن من الملوم ؟

كلنا يعرف البيئة التى تجتاب منها العمال ، وهى بكل تأكيد ليست كلية الهندسة ولا المدرسة التطبيقية ! فهم منطقيون مع بيئتهم ومع نشأتهم التى لا حيلة لهم فيها . و إذا كنا لم نعمل على أن تسير برامج التعليم وأنواعه حسب حاجة السوق ، فتخرج المدارس الصناعية جميع من تحتاجهم السوق العملية بالكفاية والمرانة اللازمتين لها ، بدل أن تخرج عشرات الألوف ممن لا تتقبلهم صناعات فى الخارج ولا مرافق تستنفد جهودهم ، فلا أقل من أن يكون لنا " جيش خلاص " تخصص فرقة منه للاندماج فى أوساط العمال ، محاولة تهذيبهم و إرشادهم ، وترقية مستواهم الفنى والخلقى والصحى والعقلى ، بشتى الوسائل والطرق ، كالنوادى ، والمدارس العملية والعلمية الليلية ، أو " مدارس الجمعة " أو " مدارس الأحد " للمساهمة فى هذه الغاية النبيلة .

ونحن نشكو أصحاب الحرف المصريين ، نشكو جهلهم وادعاءهم وقذارة محالهم وفظاظتهم ، ونشكو غشهم وكذبهم فى المواعيد واضطرابهم فى النظام ، ونشكو جهلهم بأصول الذوق وأسرار الصنعة . . إلى آخر هذه العيوب التى يعرفها من يعاملون أصحاب الحرف المصريين الترزى يغش البطانة والحشو والخيط معتمدا على أنك لا تستطيع أن تدرك هذا الغش إلا بعد حين . وكذلك يصنع النجار فى أثاثك و يسبب لك تلفه الوشيك بسبب قطعة خشب أو نقطة غراء ! . والساعاتى يسرق أجزاء من عدة الساعة و يضع بدلها أرخص منها

او يحاسبك على ثمن قطعة بديلة جديدة بينما يدس القطعة البالية لا تلبث أن تفسد . والميكانيكى يسرق مصابيح الراديو الجيدة و يدس بدلا منها مصابيح على وشك الفساد ، وكذلك يصنع ببعض عدد سيارتك إذا أسلمتها له للاصلاح . . وهكذا وهكذا من الأمثلة التى نصادفها كل يوم ونتألم منها جميعا . والجميع يعطونك الموعد تلو الموعد و يماطلون عملك و يضيعون وقتك ولا تكاد تتسلم ما أوصيتهم ، إلا بعد المدى المعين بمدد كبيرة . ويحاول بعضنا وهو ينقم على هذه المساوئ أن يقول لك : انظر الى الأجنبى ماذا يصنع فى مثل هذه الأحوال جميعا . ألسنا معذورين إذا ركنا الى هؤلاء الأجانب أرحنا أنفسنا من هذا العناء ؟

وقد يكون هذا التصرف مريحا للأفراد ، ولكنه متعب للوطن والمجتمع ، وهو على أية حال هروب من الواجب ... ان أصحاب الحرف المصريين معذورون ونحن عليهم لا جناة . إنهم منطقيون مع بيئتهم ونشأتهم ، وكل ما قيل عن عمال المصريين يقال عن أصحاب الحرف ، وكل ما يصلح أولئك يصلح هؤلاء . وجيش الخلاص هو الحل القريب والمحاولة العملية المجدية لردهم جميعا إلى الاستقامة المطلوبة والإجادة المفقودة .

ونحن نشكو غش البائع المصرى فى الثمن والسلعة ومساوماته التى لا تنتهى ، وقذارته وسوء تنظيمه وعرضه لسلعته وقصر نظره فى عدم الاحتراس من عواقب هذا كله على تجارته وعلى الثقة فيه ... بائعة اللبن تضيف إليه الماء ، وبائع الزبدة يحشوها بالملح والدقيق ويضيف اليه المرجرين وزيت الجوز ! و بائعة الدجاج والأرانب تدس لك المريض منها باسم الصحيح والعجوز باسم الصغير ! والقصاب يدس لك العظم والشحم والسمين من الطازج ، والبدال يخلط لك ما نخره السوس أو العفن من بضاعته بالجديد و يبيعك الزيت الاسبانى باسم الزيت الفرنساوى والبيض "المدمس" باسم البيض السليم ! والفكهى يجتهد فى أن يغافلك ليدس لك الفاكهة الفجة والفاسدة بين الناضج منها والطازج ، و بائع الملابس يدعى أنك لست خبيرا فى أصنافها فيبيعك ما يريد هو لا ما تريد !

[illegible]
فى الـ[illegible] ، وهم على كل حال [illegible] من المسمومين .

ونحن ضحايا هؤلاء دائما وكذلك فى الحقيقة جدا ! هؤلاء الناس جهال مهملون ، وهم غالبا فقراء محرومون أو كانوا كذلك قبل أن يغتنوا بالغش والخداع والكذب والاحتيال !

ولن ينقذنا منهم أو ينقذهم منا إلا "جيش الخلاص" يخصص فرقة منه تندس فى أوساطهم وتحاول إرشادهم الى المبادئ القويمة التى يحضها الدين والخلق ويدعو اليها بعد النظر فى الأعمال التجارية القائمة على الثقة والاطمئنان والدوام .

وهكذا أينما ذهبنا نضرب الأمثلة نجد المجتمع هو الجانى على هؤلاء الذين نشكو جنايتهم عليه ، وهو بهذا قاتل ومقتول ، وظالم ومظلوم . ولكنه ليس صاحب حق فى الشكوى قبل أن يصنع شيئا لاستدراك ما فاته فى آلاف السنين .

لقد مضى أكثر من خمسة آلاف سنة وهذه الطبقات فقيرة محرومة مهملة جاهلة منبوذة ، فلا أقل من أن نصبر عليها خمسين سنة نحاول فيها إصلاحها ما وسعنا الإصلاح قبل أن نغضب وقبل أن ننسب إليها الجريمة .

أعطفوا على هؤلاء الناس وامنحوهم حقوقهم المهضومة ، وحاولوا رفع مستواهم وتهذيب أخلاقهم وتثقيف مداركهم ، ثم انظروا بعد ذلك كيف يكونون . وكيف ينفعون وينتفعون .

إن السخط على هؤلاء الناس ، واليأس من إصلاحهم ، عمل مريح للفرد الذى يعيش لنفسه فقط ، ولكنه عمل وخيم العاقبة على الفرد الذى يعيش فى مجتمع ، وعلى المجتمع الذى يحيا فى وطن ، وعلى الوطن الذى يتسابق فى مضمار الحياة مع الآخرين .

وإن الثروة العقلية والثروة الخلقية لزكاة مفروضة على من يملكونها كزكاة المال ، فإذا أخرج كل فرد من القادرين زكاة العقل وزكاة النفس وزكاة المال لهؤلاء المحرومين من ولائك جميعاً حدث شيء من التوازن فى توزيع هذه الثروات التى تتضخم مجتمعة فى جانب وتتضاءل مجتمعة فى الجانب الآخر ؟

ليس بالكثير على الخادم الجاهل المهمل المهجور أن يهمل وأن يتلاعب وأن يسرق وأن يغادر الدار بلا إخطار .

وليس بالكثير على العامل الجاهل المريض المعدم أن يهمل وأن يتلاعب وأن يدمن وأن تركبه القذارة والأمراض .

وليس بالكثير على ذى الحرفة الجاهل المحروم أن يهمل وأن يتلاعب وأن يغش ويفسد ذوقه ويخل بالمواعيد .

وليس بالكثير على البائع الجوال ؛ أو فى العادى المريض أن يغش وأن يساوم ، أن ينتهز كل فرصة تلوح ولكنه كثير على السيد الغنى المتعلم المثقف القادر أن يدع هؤلاء جميعاً ينحدرون انحداراً دائماً ويؤذون المجتمع ويؤذون أنفسهم . وهو جالس يستريح ، مكتف بالسخط والغضب أو اللوم والتقريع .

" حين الخلاص " أو زكاة العقل والنفس والصحة والمال مجتمعة فى هذا العنوان الجميل .